دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	دراسات قرانية: الأمثال فى القرآن الكريم: ثلاثة أمثال مضروبة فى مثل
المصدر:	التوحيد
الناشر:	جماعة أنصار السنة المحمدية
المؤلف الرئيسي:	البصراتي، مصطفى
المجلد/العدد:	س45, ع540
محكمة:	لا
التاريخ الميلادي:	2016
الشهر:	ذو الحجة
الصفحات:	13 - 16
رقم MD:	778923
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
اللغة:	Arabic
قواعد المعلومات:	IslamicInfo
مواضيع:	القرآن الكريم، الأمثال فى القرآن، تفسير القرآن
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/778923

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

الأمثال في القرآن

ثلاثة أمثال مضروبة في مَثَل

إعداد/ مصطفى البصراتي

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وبعدُ:

ففي هذا المقال نتحدث عن مثل آخر من الأمثال في القرآن الكريم، وهو في قوله تعالى: « أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ » (الرعد:١٧).

تفسير المفردات:

الماء: يريد به المطر.

الأودية: جمع وادٍ وهو كل منفرج بين جبلين أو نحوهما يسيل الماء فيه بكثرة، فاتسع فيه، واستعمل للماء الجاري فيه، وتنكيرها هنا لأن المطر يأتي على تناوب بين البقاع، وإذا نزل لا يعم جميع الأرض ولا يسيل في كل الأودية، بل ينزل في أرضٍ دون أرض، ويسيل في وادٍ دون واد.

بقدرها: والقدَر- بفتحتين-: التقدير. فقوله: «بقدرها» في موضع الحال من «أودية» وذكره لأنه من مواضع العبرة.

وهو أن كانت أخاديد الأودية على قدر ما تحتمله من السيول بحيث لا تفيض عليها، وهو غالب أحوال الأودية، وهذا الحال مقصود في التمثيل؛ لأنه مثال انصراف الماء لنفع لا ضر معه؛ لأن من السيول جوارف تجرف الزرع والبيوت والأنعام.

«فاحتمل السيل زبدًا رابيًا» أي: فجاء على وجه الماء الذي سال في هذه الأودية زبدٌ عالٍ عليه، هذا مثل. (تفسير ابن كثير).

«ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله»: وهذا مثل ثاني وهو المثل الناري.

وهذا كالحديد والنحاس والفضة والذهب وغيرها، فإنها تدخل الكير تتمحص وتخلص من الخبث فيخرج خبثها فيرمي به ويطرح ويبقى خالصها فهو الذي ينفع الناس.

«ابتغاء حلية أو متاع»: مفعول لأجله متعلق بـ «توقدون» ذكر لإيضاح المراد من الصلة ولإدماج ما فيه من منة تسخير ذلك للناس لشدة رغبتهم فيهما.

و«الحلية»: ما يُتحلى به، أي يتزين وهو المصوغ.

و«المتاع» ما يتمتع به وينتفع وذلك المسكوك الذي يتعامل به الناس من الذهب والفضة.

«كذلك يضرب الله الحق والباطل»: إشارة «كذلك» هي إلى التمثيل السابق في جملة «أنزل من السماء ماءً» أي: مثل ذلك الضرب البديع يضرب الله الأمثال وهو المقصود بهذا التنزيل، والإشارة للتنويه بذلك المثل وتنبيه الأفهام إلى حكمته وحكمة التمثيل، وما فيه من المواعظ والعبر، وما جمعه من التمثيل والكناية التعريضية والى بلاغة القرآن وإعجازه وذلك تحدٍ للمشركين. (تفسير المفردات مستفاد من تفسير ابن كثير والمحرر الوجيز وبدائع التفسير والتحرير والتنوير وفتح البيان بتصرف).

مما تجدر الإشارة إليه أن هذه الآية وهي السابعة عشرة من سورة الرعد اشتملت على ثلاثة أمثال ضربها الله تعالى في مثل واحد، وقد بحثت وتأملت في كُتب التفسير فوجدت كلامًا رائعًا للمفسرين في تفسير وتوضيح هذه الأمثلة في الآية المذكورة فرأيت من الضرورة بمكان أن أنقل بعض هذه النقول المهمة من هذه الأقوال حتى يستفيد القارئ من كلام المفسرين

فكل مفسر له بعض الإشارات واللطائف التي لا يستغني عنها طالب العلم وغيره ممن له اهتمام بعلم التفسير وبالأخص «الأمثال في القرآن»، فرأيت أن أنقل بعض هذه الإشارات واللطائف تتميمًا للفائدة، والله أسأل أن يوفقني في اختيار هذه اللطائف والإشارات التي تفيد القارئ.

المعنى الإجمالي:

قال ابن القيم في الجامع لأمثال القرآن (ص١١٦): «هذه ثلاثة أمثال ضربها الله في مثل واحد، يقول: كما اضمحل هذا الزبد فصار جُفاء لا ينتفع به ولا تُرجى بركته، كذلك يضمحل الباطل عن أهله كما اضمحل هذا الزبد وكما مكث هذا الماء في الأرض، فأمرعت هذه الأرض وأخرجت نباتها، كذلك يبقى الحق لأهله كما بقي هذا الماء في الأرض، فأخرج الله به ما أخرج من النبات.

وقد شبه الوحي الذي أنزله لحياة القلوب والأسماع والأبصار بالماء الذي أنزله لحياة الأرض بالنبات.

وشبه القلوب بالأودية، فقلب كبير يسعُ علمًا عظيمًا كواد كبير يسعُ ماءً كثيرًا، وقلبٌ صغيرٌ إنما يسعُ بحسبه كالوادي الصغير فسالت أودية بقدرها، واحتملت قلوب من الهدى والعلم بقدرها، وكما أن السيل إذا خالط الأرض ومر عليها احتملت غثاءً وزبدًا فكذلك الهدى والعلم إذا خالط القلوب أثار ما فيها من الشهوات والشبهات ليقلعها ويذهبها، كما يثير الدواء وقت شربه من البدن أخلاطه فيتكدرُ بها شاربه، وهي من تمام نفع الدواء، فإنه أثارها ليذهب بها، فإنه لا يجامعها ولا يساكنها، وهكذا ﴿يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾ (الرعد:١٧).

ثم ذكر المثل الناري فقال: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾ (الرعد:١٧)، وهو الخبث الذي يخرج عند سبك الذهب والفضة والنحاس والحديد فتخرجه النار وتميزه وتفضله عن الجوهر الذي ينتفعُ به فيرمى ويطرح ويذهب جفاءً، فكذلك الشهوات والشبهات يرميها قلب المؤمن ويطرحها ويجفوها كما يطرح السيل والنارُ ذلك الزبد والغثاء والخبث، ويستقرُ في قرار الوادي الماء الصافي الذي يستقي منه الناس ويزرعون ويسقون أنعامهم، كذلك يستقر في قرار القلب وجذره الإيمان الخالص الصافي الذي ينفع صاحبه وينتفع به غيره، ومن لم يفقه هذين المثلين ولم يتدبرهما ويعرف ما يرادُ منهما فليس من أهلهما، والله الموفق. (انتهى بتصرف، من الجامع في أمثال القرآن لابن القيم).

المعنى التفصيلي:

وأبدأ بكلام رائع للعلامة ابن رجب الحنبلي في روائع التفسير (١/١٥٨٠) يقول رحمه الله: «ولما كانت هذه الشريعة خاتمة الشرائع وعليها تقومُ الساعة، ولم يكن بعدها شريعة ولا رسالة أخرى، تُبيِّنُ ما تبدَّل منها وتجدد ما دَرَسَ من آثارهما، كما كانت الشرائع المتقدمة تجدد بعضها آثارَ بعض، وتبينُ بعضها ما تبدل من بعض، تكفل الله بحفظ هذه الشريعة ولم يجمع أهلها على ضلالة، وجعل منهم طائفة قائمة بالحق لا تزال ظاهرةً على من خالفها حتى تقوم الساعة، وأقامَ لها من يحملها ويذبُّ عنها بالسيف واللسان والحجة والبيان، فلهذا أقام الله لهذه الأمة من خلفاء الرسل وحملة الحجة في كل زمان من يعتني بحفظ ألفاظ الشريعة وضبطها وصيانتها عن الزيادة والنقصان ومن يعتني بحفظ معانيها، ومدلولات ألفاظها وصيانتها عن التحريف والبهتان.

والأولون أهل الرواية، وهؤلاء أهل الدراية والرعاية وقد ضرب النبيُّ صلى الله عليه وسلم مثل الطائفتين. كما ثبت في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل غيث أصاب الأرض فكانت منها طائفة قبلت الماءَ فانبتت الكلأ والعُشب الكثير، وكانت منها أجادبُ أمسكت الماء فنفع الله بها ناسًا فشربوا وزرعوا، وأصابت طائفةً منها أخرى، إنما هي قيعان لا تمسك ماءً ولا تُنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه الله بما بعثني به ونفع به فعَلِمَ وعَلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به».

فمثل النبي صلى الله عليه وسلم العلم والإيمان الذي جاء به بالغيث الذي يصيبُ الأرض، وهذا المثل كقوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ

بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا» (الرعد:١٧)، فمثل تعالى ما أنزله من العلم والإيمان إلى القلوب بالماء الذي أنزله من السماء إلى الأرض، وهو سبحانه وتعالى يمثل العلم والإيمان تارة بالماء كما في هذه الآية، وكما في المثل الثاني المذكور في أول سورة البقرة، وتارة يمثله بالنور كما في المثل المذكور في سورة النور، والمثل الأول المذكورُ في سورة البقرة وكذلك في هذه الآية التي في سورة الرعد، وذكر مثلاً ثانيًا يتعلق بالنار وهو قوله: «وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ» (الرعد:١٧)، فإن الماء والنور مادة حياة الأبدان، ولا يعيشُ حيوان إلا حيث هما موجودان، كما أن العلم والإيمان مادة حياة القلوب هما للقلوب كالماء والنور، فإذا فقدهما القلب فقد مات.

وقوله تعالى: «فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا» (الرعد:١٧)، شبَّه القلوب الحاملة للعلم والإيمان بالأودية الحاملة للسيل، فقلبٌ كبيرٌ يسعُ علمًا عظيمًا، كوادٍ كبيرٍ يسع ماءً كثيرًا، وقلبٌ صغير يسعُ علمًا قليلاً، كوادٍ صغير يسعُ ماءً قليلاً، فحملت القلوب من هذا العلم بقدرها كما سالت الأودية من الماء بقدرها.

فهذا تقسيم للقلوب بحسب ما تحمله من العلم والإيمان إلى متسع وضيق، والذي ذكره النبي صلى الله عليه وسلم في حديث أبي موسى تقسيمٌ لها بحسب ما يردُ عليها من العلم والإيمان إلى قابل لإنبات الكلأ والعشب وغير قابل لذلك، وجعلها ثلاثة أقسام:

القسم الأول: قسمٌ قبل الماء، فأنبت الكلأ والعشب الكثير، وهؤلاء هم الذين لهم قوة الحفظ والفهم والفقه في الدين، والبصر بالتأويل، واستنباط أنواع المعارف والعلوم من النصوص، وهؤلاء مثل: الخلفاء الأربعة، وأبي بن كعب، وأبي الدرداء، وابن مسعود، ومعاذ بن جبل، وابن عباس، ثم كالحسن، وسعيد بن المسيب، وعطاء، ومجاهد، ثم كمالك، والليث، والثوري، والأوزاعي، وابن المبارك، والشافعي، وأحمد، وإسحاق، وأبي عبيد، وأبي ثور، ومحمد بن نصر المروزي، وأمثالهم من أهل العلم بالله وأحكامه وأوامره ونواهيه، وكذلك مثل: أويس، ومالك بن دينار، وإبراهيم بن أدهم، والفضيل بن عياض، وأبي سلمان، وذي النون، ومعروف، والجنيد بن محمد، وسهل بن عبد الله والحر بن أسد، وأمثالهم من أهل العلم بالله وأسمائه وصفاته وأيامه وأفعاله.

القسم الثاني: وقسمٌ حفظ الماء، وأمسكه حتى ورد الناس فأخذوه فانتفعوا به وهؤلاء هم الذين لهم قوة الحفظ والضبط والإتقان، دون الاستنباط، والاستخراج، وهؤلاء كسعيد بن أبي عروبة، والأعمش، ومحمد بن جعفر غندر، وعبد الرزاق، وعمرو الناقد، ومحمد بن بشار بندار، ونحوهم.

القسم الثالث: وقسمٌ ثالثٌ وهم شرُّ الخلق، ليس لهم قوة الحفظ ولا قوة الفهم، لا دراية، ولا رواية، وهؤلاء الذين لم يتقبلوا هدى الله ولم يرفعوا به رأسًا.

والمقصود هاهنا أن الله تعالى حفظ هذه الشريعة بما جعل لها من الحملة، أهل الدراية، وأهل الرواية، فكان الطالب للعلم والإيمان يتلقى ذلك ممن يدركه من شيوخ العلم والإيمان، فيتعلم الضابط القرآن والحديث، ممن يعلمُ ذلك، ويتعلمُ الفقه في الدين من شرائع الإسلام الظاهرة وحقائق الإيمان الباطنة، ممن يُعلم ذلك. (اهـ من روائع التفسير لابن رجب ١/٥٨٠).

وقال الطاهر بن عاشور في التحرير والتنوير ١١٦/٧: «جملة «أنزل من السماء ماءً» استئناف ابتدائي أفاد تسجيل حرمان المشركين من الانتفاع بدلائل الاهتداء التي من شأنها أن تهدى من لم يطبع الله على قلبه فاهتدى بها المؤمنون.

وجيء في هذا التسجيل بطريقة ضرب المثل بحالي فريقين في تلقي شيء واحد انتفع فريق بما فيه من منافع وتعلق فريق بما فيه من مضار وجيء في ذلك التمثيل بحالة فيها دلالة على بديع تصرف الله تعالى.

ليحصل التخلص من ذكر دلائل القدرة إلى ذكر عبر الموعظة، فالمركب مستعمل في التشبيه التمثيلي بقرينة قوله: «كذلك يضرب الله

الحق»، شبه إنزال القرآن الذي به الهدى من السماء بإنزال الماء الذي به النفع والحياة من السماء، وشبه ورود القرآن على أسماع الناس بالسيل يمر على مختلف الجهات فهو يمر على التلال والجبال فلا يستقر فيها، ولكنه يمضي إلى الأودية والوهاد فيأخذ منه كل بقدر سعته، وتلك السيول في حال نزولها تحمل في أعاليها زبدًا، وهو رغوة الماء التي تربو وتطفو على سطح الماء، فيذهب الزبد غير منتفع به، ويبقى الماء الخالص الصافي ينتفع به الناس للشراب والسقي، ثم شبهت هيئة نزول الآيات وما تحتوي عليه من إيقاظ النظر فيها، فينتفع به من دخل الإيمان قلوبهم على مقادير قوة إيمانهم وعملهم ويمر على قلوب قوم لا يشعرون به وهم المنكرون المعرضون، ويخالط قلوب قوم فيتأملونه فيأخذون منه ما يثير لهم شبهات وإلحادًا، كقولهم: «هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ» (سبأ:٧)، ومنه الأخذ بالمتشابه، قال الله تعالى: «فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ» (آل عمران:٧).

شبه ذلك كله بهيئة نزول الماء فانحداره على الجبال والتلال وسيلانه في الأودية على اختلاف مقاديرها، ثم ما يدفع من نفسه زبدًا لا ينتفع به ثم لم يلبث الزبد أن ذهب وفني، والماء بقي في الأرض للنفع. ولما كان المقصود التشبيه بالهيئة كلها جيء في حكاية ما ترتب على إنزال الماء بالعطف بفاء التفريع في قوله: «فسالت»، وقوله: «فاحتمل»، فهذا تمثيل صالح لتجزئة التشبيهات التي تركب منها وهو أبلغ التمثيل. (التحرير والتنوير لابن عاشور ١١٧/٧).

وقال البغوي في معالم التنزيل: وقيل: قوله: «أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً» هذا مثل للقرآن والأودية مثل للقلوب، يريد ينزل القرآن، فيحتمل منه القلوب على قدر اليقين والعقل والشك والجهل، فهذا أحد المثلين والمثل الآخر قوله عز وجل: «وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ» (الرعد:١٧) أي: ومن الذي توقدون عليه في النار، والإيقاد جعل النار تحت الشيء ليذوب، ابتغاء حلية أي لطلب زينة وأراد الذهب والفضة؛ لأن الحلية تُطلب منهما، أو متاع، أي: طلب متاع وهو ما ينتفع به، وذلك مثل الحديد والنحاس والرصاص، تذاب فيتخذ منها الأواني وغيرها مما ينفع بها.

«زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ» (الرعد:١٧) أي: وإذا أذيب فله أيضًا زبد مثل زبد الماء، فالباقي الصافي في هذه الجواهر مثل الحق والزبد الذي لا ينتفع به مثل الباطل.

«فَأَمَّا الزَّبَدُ» (الرعد:١٧) الذي علا السيل فيذهب جفاء أي: ضائعًا باطلاً، والجفاء ما رقى به الوادي من الزبد إلى جنباته.

معناه: إن الباطل وإن علا في وقت فإنه يضمحل، وقيل: جفاءً أي متفرقًا، يقال: جفأت الريح الغيم إذا فرقته وذهبت به، وأما ما ينفع الناس يعني: الماء والفلز من الذهب والفضة والنحاس فيمكث في الأرض أي يبقى ولا يذهب، كذلك يضرب الله الأمثال جعل هذا مثالاً للحق والباطل، يعني: أن الباطل كالزبد يذهب ويضيع، ويبقى الحق. (معالم التنزيل للبغوي).

وقال ابن الجوزي في زاد المسير: وفيما ضرب له هذان المثلان ثلاثة أقوال:

أحدها: القرآن، شُبه نزوله من السماء بالماء، وشبه قلوب العباد بالأودية تحمل منه على قدر اليقين والشك والعقل والجهل فيستكن فيها، فينتفع المؤمن بما في قلبه كانتفاع الأرض التي يستقر فيها المطر، ولا ينتفع الكافر بالقرآن لمكان شكه وكفره فيكون ما حصل عنده من القرآن كالزبد وخبث الحديد لا ينتفع به. الثاني: أنه الحق والباطل، فالحق شبه بالماء الباقي الصافي، والباطل مشبه بالزبد الذاهب، فهو وإن علا على الماء فإنه سيمحق كذلك الباطل، وإن ظهر على الحق في بعض الأحوال، فإن الله سيبطله. الثالث: أنه مثل ضربه الله للمؤمن والكافر، فمثل المؤمن في اعتقاده وعمله كالماء المنتفع به، ومثل الكافر واعتقاده وعمله كالزبد. (زاد المسير).

والله من وراء القصد، وهو يهدي السبيل.